

بيولوجيا النصّ في تصوّر -رولان بارت -قراءة في كتاب (S/Z)

وهيبة جراح*

يعتبر مفهوم النص من المفاهيم التي جذبت اهتمام العديد من الباحثين في ميدان تحليل الخطاب بكلّ أنواعه، وقد اتخذ هذا المفهوم أبعاداً مختلفة، جعلته يتشعب ويتناسل وفق الخلفيات والمرجعيات التي كانت تتحكّم في كلّ تيّار نظري واشتغل عليه، لهذا وجدنا تعريفات متباينة له كانت كلّها تدور حول محاور الرفع والإظهار، أقصى الشيء ومنتهاه، ضمّ الشيء، إذ يجب على المتكلّم دائماً (الكاتب) من رفع نصّه وإظهاره حتى يفهم المتلقي، كما أنّ الضمّ يعني إضافة شيء لآخر ممّا يعني أنّ الحديث هنا سيكون حول جانب الاتّساق والانسجام والترابط الحاصل بين وحدات النصّ. هي أهمّ المفاهيم اللغويّة التي يمكننا تحصيلها من المصطلح، أما في الجانب الاصطلاحي فلا يمكننا العثور على تعريف جامع للنصّ، إلّا أنّ هناك من الباحثين من اعتمد في تعريفه على المكونات والعناصر التي يتألّف منها النصّ، فقال: "النص تتابع مترابط من الجمل، ويستنتج من ذلك أنّ الجملة بوصفها جزءاً صغيراً ترمز إلى النصّ، ويمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام أو علامة تعجب، ثمّ يمكن بعد ذلك وصفها على أنّها وحدة مستقلة نسبياً"⁽¹⁾. وهناك من دقّق أكثر في مفهوم النصّ على حدّ "هاليداي ورقية حسن" حيث يقولان: "أيّ فقرة منطوقة أو مكتوبة على حدّ سواء مهما طالّت أو امتدّت هي نصّ، والنص وحدة اللغة المستعملة، وليس محدّداً بحجم، والنص يرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة، والنص لا شكّ أنّه يختلف عن الجملة في النوع، وأفضل نظرة إلى النصّ اعتباره وحدة دلاليّة، وهذه الوحدة لا يمكن اعتبارها شكلاً، لذلك فإنّ النصّ الممثل بالعبارة أو الجملة إنّما يتصل بالإدراك والفهم لا بالحجم"⁽²⁾. ليس بعيداً عن هذه المفاهيم المقدّمة للنصّ في اللسانيات وعلم الدلالة، يطالعنا الدرس السيميائي المعاصر بمفاهيم أكثر دقّة للنصّ، مفاهيم جمعت بين شتات التعريفات والتقطيعات التي عرفها المصطلح في النظريات السابقة، إذ جاء "رولان بارت" بمختلف مناهجه الانقلابيّة ليرسي قواعداً أخرى

* - باحثة أكاديمية . المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف-ميلة

تسمح بنمو النص من منظور فعل التلقي والتأويل، الأمر الذي يجعلنا نتساءل: ما مفهوم النص عند بارت؟ وما هي إوالات اشتغاله؟ والأهم من ذلك: ما هي النماذج النصية الناتجة عن التنوع المنهجي في تصوّر النص؟

1-التقويم وفعل الانكتاب:

في مقدّمة كتابه يبدي بارت نزعة تفكيكية هدفها القضاء على كلّ المفاهيم التقليدية في قراءة وتأويل النصوص، لقد اهتمّ بالنص الناتج عن عملية التلقي، فكان هاجسه هو الكيفية التي ينمو بها النصّ من خلال فعل الكتابة، لهذا نجده يثير جملة من التساؤلات في شأن النصّ من قبيل: كيف يتمّ تحديد قيمة نص ما؟ وكيف تتأسّس صناعة النصوص؟

يمجّد "بارت" فعل الكتابة أثناء الإجابة عن هذه التساؤلات، ومن خلاله ينبثق مصطلح النص القابل للانكتاب، فحسبه أنّ "رهان العمل الأدبي أن يجعل من القارئ منتجا للنص وليس مجرد مستهلك فقط"⁽³⁾، ويعتبر التقويم الوسيلة المثلى التي تجعل القارئ يندفع نحو الإنتاجية النصية "فلا يمكن لتقويمنا أن يرتبط إلا بممارسة، هذه الممارسة هي الكتابة"⁽⁴⁾، وهذه النتيجة لم تنبثق من العدم، وإنّما من مجموع النقائص التي سجّلها في النظريات التي قاربت اشتغال المعنى في النصوص، هذه الأخيرة التي شبّه مقارباتها بممارسات البوذيين الذين يحاولون إيجاد رؤية موحدة لظواهر هذا العالم، والنموذج الأمثل لهذه النظرة ما فعله محلّلو الحكايات أين قاموا باستخلاص جملة من الثوابت التي تقوم عليها كلّ الحكايات في العالم، وفي هذا تلميح إلى قصور النظريات البنيوية في مقاربتها للمعنى. وبناء على هذا يشترط إمّا أن يوضع النصّ في لعبته، التي تضمن له اللانهائية الدلالية، وإمّا أن يُترك في انغلاقيته بصراع أحادية المعنى الموحشة.

2-التأويل والسرورة الدلالية:

تترتّب عن التقويم عملية ثانية تسمح بضمان إنتاج النص، ويسمى بارت بالتأويل، فإذا كان التقويم يسمح للقارئ بعزل النص القابل لإعادة الكتابة من النص الغير قابل لذلك، فإنّ التأويل سيفتح باب السرورة الدلالية على مصرعيها، والتأويل الذي قصده بارت هنا ليس الذي يسمح بإعطاء معنى نهائي لأي نص من النصوص، وإنّما هو العملية التي تسمح بضمان حياة الدوال دون المدلولات، ومهمّة هذا التأويل هو دفع عملية الانكتاب إلى الأمام وجعلها تتجرّد من كل الثوابت واليقينيات، لهذا فهو يرى أنّ "النص القابل للانكتاب هو نحن (...)", فهو الروائي بدون الرواية والشعر بلا قصيد، المقالة بدون الإنشاء، والكتابة ماعدا الأسلوب"⁽⁵⁾.

3-الإحياء والتعدّد الدلالي:

- يمجد بارت الإحياء ويجعله سيد العملية الإنتاجية، فحسبه ينبغي المحافظة على الإحياء كأثر للتعدد دلالي ما في النص، وقد أدرج له بارت مجموعة من التعريفات:
- من الناحية التعريفية: هو سمة لها القدرة على العودة إلى بيانات سابقة أو لاحقة أو خارجة، إلى مواضع أخرى في النص.
 - من الناحية التحليلية: فهو ينتظم عبر فضاءين: فضاء متواليات وهو عبارة عن تسلسل نظام عبر تسلسل الجمل التي يتناسل بمقتضاها المعنى، وفضاء تكتلي أين يتعالق النص مع مواضع خارج النص المادي.
 - من الناحية الوظيفية: هو تواصل مضاد يعمل على إفساد العلاقة بين كاتب النص وقارئه⁽⁶⁾.

4- القراءة ووصل الأنساق النصية:

"لأنني أنسى فأنا أقرأ"، يربط بارت عملية إنتاج النصوص وكتابتها بعامل القراءة، وهي عنده ممارسة طبيعية لهتك حجاب المعاني التي ينطوي عليها النص المقروء، لكن جدواها لا يتحقق إلا أثناء انغماس الذات في فتنة هذا الدال (النص)، وعلامة هذا الانغماس هي تمكن الذات من الانفلات من معاني النص المقروء إلى كتابة معاني جديدة تؤسس بدورها لميلاد نص جديد على أنقاض النص القديم (المقروء)، وبهذا تتحقق عملية الوصل بين الأنساق النصية، "فالعثور على المعاني تسمية لها، لكن هذه المعاني المسماة محمولة نحو أسماء أخرى، الأسماء تتداعى وتتجمع، وتجمعها يريد من جديد أن يتخذ له اسماً، أسي وأمنح أسماء وأعيد، هكذا يمر النص إنه تسمية في حالة صيرورة"⁽⁷⁾.

5- تفكيكية المعنى النصي خطوة بخطوة:

أمام هذه الكنوا التي تنطوي عليها النصوص، يقترح بارت معاملة فريدة من نوعها، إذ ينبغي على القارئ أن يقارب ويكتشف الدلالات المتوارية خطوة بخطوة، عن طريق تفكيك النص إلى وحدات قرائية، على غرار المنهجية التفكيكية التي قدمها لقصة صرازين، "فكل نص مفرد -حسبه- نظرية"⁽⁸⁾ وبالتالي فهو جدير بالحفر والتنقيب عبر خطوات تأخذ في حسابها مدى استيفاء الوحدة القرائية للمعنى المقصود، إذ ينبغي "تتبع وتقصي أعراق المعنى وشعيراته وأن لا نترك أي موضع للدال دون استشعار الشفرة أو الشفرات التي قد يكون هذا الموضع هو منطلقها"⁽⁹⁾.

6- النصّ المنجم والوحدة القرائية:

وفقا للقوانين التي شرّعها بارت أعلاه، سينتج لدينا نص مفكّك إلى مجموعة من الوحدات التي لا يتحكّم فيها سوى مبدأ الملاءمة، "وسيكون التقطيع اعتباطيا، لن يستتبع أيّ ممسؤولية منهجية، لأنّه سينصبّ على الدال" (10)، والشرط الذي يضعه بارت هنا في شأن الوحدة القرائية هو "أن لا تحتوي العجامة الواحدة على أكثر من ثلاثة أو أربعة معاني للتعدّد" (11).

7- النصّ المهشّم وتعدد الأصوات:

من خصائص النص الجديد الذي ينشأ عن فعل القراءة تعدّد الأصوات والمعاني التي أصبحت تتناسل بتناسل القراءات وتعدّدها، فقد أصبح بإمكان القارئ "أن يلعب وأن يسمع صوته إذا رغب في ذلك، وما صوته سوى إصغاء لأحد أصوات النص" (12). إنّ النصّ المهشّم هنا هو خلاصة الطموح والتصوّر الذي بناه بارت في شأن النص، وهو نص ناتج عن الممارسات النقدية التي يبيدها القارئ، ولكن شريطة أن تتعدّد القراءات.

نتيجة:

لقد سعى "رولان بارت" إلى إرساء مفاهيم جديدة للنصّ، تعتمد كلّها على الجهود التي يبذلها القارئ في فكّ شفرات النصّ المقروء، وقد كانت إستراتيجيته التفكيكية بمثابة إعلان صاحب عن تجاوز الحدود البنيوية التي قال بها ذات مرّة، لا يمكن أن ينمو النصّ ويتطوّر في تصوّر بارت بمعل عن الذات التي تتكفّل بالقراءة والتقويم والتأويل، وبما أنّ النصّ نسيج م الدوال والمدلولات، ينبغي لزاما الاهتمام بالدوال دون المدلولات لأنّها حسب رأيه الضامن الأكبر لسيرورة المعاني، وهي الأساس في التطوّر البيولوجي لأيّ نصّ. لكن ما يثير التساؤل فعلا في هذا الموضوع وفي جلّ المواضيع التي طرّقها الدرس السيميائي المعاصر هو: لماذا هذه العودة القويّة إلى تمجيد الذات في بناء المشاريع والنظريات الكبرى؟.

هوامش البحث:

1 - برند شيلتر، علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمود جاد الرب، جامعة الملك سعود، الرياض، ص188.

- 2- Haliday and rukaya hassen , cohesion english , longman, london , 1976, p12 .
- 3- Romand barthes , s/z, editions seuil, 1970, p22.
- 4- Ibid, p22
- 5- Ibid, p24
- 6- Ibid, p28-29
- 7- Ibid, p31.
- 8- Ibid, p32-33
- 9- Ibid, p32-33
- 10- Ibid, p34.
- 11- Ibid, p34.
- 12- Ibid, p36